

المصطلح العلمي في اللغة العربية

د. محمد عبد المنعم
خفاجي
جامعة الأزهر - مصر

اللغة العربية تعبر عن هوية الأمة العربية، وتمثل شخصيتها القومية، باعتبارها وعاء الخصائص التاريخية والعرقية والإنسانية، وهي مصدر تاريخ الأمة، وسجل تراث الشعب العربي وآدابه وفنونه ومقدساته، إنها عنوان قوميتنا، وتاج وحدتنا وسفر أمجادنا، فهي الخطاب والحديث والكتاب والصحيفة والناء والدعاء والنشيد والحوار والدعوة والمسامرة، وهي قبل كل شيء تراتيل العبادة والصلاة والإرشاد والابتهالات والمناجاة، إنها لغة القرآن الكريم، بل ولغة تلاوة أي الذكر الحكيم وهي لغة الأناجيل المتداولة في الوطن العربي، إنها اللغة ذات التاريخ العريق الممتد عبر القرون والأجيال، والتي تجيء في مقدمة لغات العالم، من حيث اكتمالها ودقة تعبيراتها وفصاحتها وبلاغتها وجمالها وروعة جرسها .

ويكفي اللغة العربية شرفاً أنها عاشت لغة الحضارة الإسلامية والتراث العربي الإسلامي وأنها ثرية كل الثراء بألفاظها وأساليبها وبلاغتها، وبما تشتمل عليه من أصول لغوية قادرة على النمو والتجدد والحياة .

وفي عصر الحضارة الحديثة، ونحن مقبلون على الدخول إلى القرن الحادي والعشرين، وأمام سيل المصطلحات العلمية الوافدة إلينا، والتي تصلبها نمو الحضارة والمخترعات الجديدة، كان لابد للعقل العربي أن يقف أمام هذه المصطلحات دارساً ومخططاً ومحاولاً اتخاذ موقف لغوي منها، وكان لابد لنا كذلك من التعرف إلى موقف أسلافنا من الحضارات التي كانت محيطة بهم،

ومن المفردات اللغوية الدخيلة التي وفدت إليهم وحاولت التسلل إلى لغتهم بتأثير الإختلاط والجوار والتجارة والتقارب الإنساني واللغوي .

اللغة العربية بمفرداتها التي تكاد تبلغ السبعمئة ألف، والتي لا تستعمل منها إلا نسبة ضئيلة لا تبلغ الواحد في المائة، والتي لا يستعمل كبار أدبائنا اليوم إلا القليل الأقل من مفرداتها، لغة غنية كل الغنى بمجازاتها واستعاراتها وأساليبها المختلفة، وبعناصر النمو والتجدد فيها من اشتقاق ومرادفات ومشترك لفظي وقياس لغوي وبما نتوسع به في النمو بالترجمة والتعريب وغير ذلك .

ونحن اليوم في أشد الحاجة في استعمالاتنا وكتابتنا إلى ألفاظ لا حصر لها من المصطلحات العلمية للمسميات التي تعايشنا في كل جوانب حياتنا العامة والخاصة على السواء .

وأهمية المصطلح العلمي ترجع إلى أنه أساس الدراسة والبحث والتأليف، وهو دعامة لغة العلماء، وقد بذلت فيه جهود كبيرة منذ فجر القرن العشرين، واختلفت الأساليب المتبعة من أجله، فمن إحياء للمصطلحات القديمة إلى استحداث مصطلحات جديدة عن طريق الإشتقاق أو التعريب، أو نقل المصطلح بعينه وصدرت معاجم متخصصة، إلا أن التقدم الإنساني وسرعة إيقاع العصر، كان أسرع وأكبر بكثير من كل جهد مبذول، وصحب ذلك اختلاف المصطلح العلمي من دولة عربية إلى دول أخرى .

وفي علوم اللغة العربية أصبحنا نقرأ في الحداثة وفي البنيوية، وفي النقد والبلاغة عموماً مصطلحات جديدة لا حصر لها، مع اختلاف البلدان العربية في هذه المصطلحات أيضاً، فنقرأ وكأننا نقرأ لغة غير مفهومة، إلى أننا في حاجة إلى توحيد المصطلح ونشره في كل مكان .

ونحن نعين منذ مطلع القرن التاسع في وطننا العربي، والإتصال بين الشعوب العربية والغرب يزداد يوماً بعد يوم، بعد حملة نابليون على مصر،

وفتح المدارس والجامعات التبشيرية في بلادنا، وسفر البعثات التعليمية إلى جامعات أوروبا، ويزداد هذا الإتصال بتقدم العلم، وبعد أن أصبح العالم كله متصلاً ببعضه ببعض وكأنه قرية واحدة، مما جعل المصطلح العلمي يتكاثر تكاثراً ظاهراً بالترجمة والتعريب ويعتبر ذلك من الوسائل اللغوية .

وقد عرفت اللغة العربية دخول الألفاظ الأجنبية إلى معجمها، وأكثر هذه الألفاظ أخذ عن الفارسية، والقليل منها عن اليونانية والأوربية والسريانية .

واللغات تستعين بعضها بألفاظ بعض، وهذه الظاهرة أمر أجمع عليه علماء اللغات، وتتوالاه حديثاً الجامع اللغوية وأمثالها، من مثل مكتب تنسيق التعريب بالرباط ويجيز معجم اللغة العربية بالقاهر ذلك، إذ نصّ في قرار له على جواز استعمال بعض الألفاظ الأعجمية، عند الضرورة بالتعريب حيناً وتسمى حينئذ بالمعربة، أو ببقائها على صورتها الأصلية وتسمى بالدخيلة .

ومن الضروري استقراء وإحياء التراث اللغوي العربي، والوقوف على ما استعمل منه وما استقر منه من مصطلحات عربية صالحة للإستعمال اليوم، وما ورد فيه من ألفاظ معربة .

وكان بعض الباحثين أرادوا أن نستعمل المسند والمسند إليه بدلا من المبتدأ والخبر في الإصطلاح النحوي، ولكن ذلك لم يلقى قبولا من العلماء في فقه اللغة ومعجمها .

وقد حرص مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ انشائه عام 1934 على تنفيذ ما جاء في صدر قانونه من ضرورة الحفاظ على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون والحضارة، فوضع مجموعة من المبادئ أوصى فيها أن يلتزم بها كل من يعمل في ميدان وضع المصطلحات العلمية والترجمة والتأليف. وبدأها بإيثار ترجمة المصطلح إلى العربية أو صياغته من أصل عربي، فإذا ما تعذر هذا أو ذاك فلا بأس من التعريب على أن تخضع كل من عمليتي الترجمة أو التعريب لقواعد مقننة موضوعة وشملت المبادئ أيضا

الإفادة مما استقر في التراث العربي من مصطلحات علمية عربية أو معربة، صالحة للإستعمال الحديث، ومسايرة للنهج العالمي، تيسيرا على الدارسين والمتخصصين العلميين .

وفي هذا الإطار اللغوي العلمي الرصين عملت اللجان العلمية اللغوية المتخصصة، إلا أن سيل الألفاظ الأعجمية التي لا يستسيغها اللسان العربي أخذ ينتشر بين الدارسين والعاملين في غيبة من حارس أو رقيب، وهنا ظهرت الحاجة إلى إجراء علاج حاسم سريع لإستئصال هذه الشوائب الخطرة من اللغة العربية قبل ان تستقر ويصعب اقتلاعها، فأخرج المجمع منذ عشر سنوات معجما موجزا يحوى معظم الألفاظ الشائعة ومصاغة وفقا للسان العربي السليم، الذي أثبت على مر العصور قدرة فائقة على استيعاب الجديد من مصطلحات العلوم والمخترعات وتبادل الألفاظ والمسميات مع اللغات الأجنبية، وتقبلت الهيئات العلمية والتطبيقية في مصر هذا العلاج السريع بقبول حسن، حفز على المضي قدما في طريق العلاج الشامل، فعمل على اخراج معجم عربي شامل على نمط المعاجم العالمية يجمع إلى جانب أصول اللغة وتراثها جميع المصطلحات التي يحتاج إليها الإنسان العربي المعاصر المثقف وذلك من أجل تعريف العلوم الحديثة وتوطينها للغة العربية. ومن طريف وضع المصطلح العلمي وضع لفظة مجواب للآلة التي تنقر الصخر بسرعة من قوله تعالى : «وَأَمْشَوْا فِي الْأَرْضِ الْيَوْمَ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ فَجَبُوا الصُّخْرَ فَهُمْ جَاوِبُونَ لِلَّهِ أَعْوَابًا» .

ولا ننسى في هذا المجال جهود الأستاذ " محمود تيمور " في معجمه حيث وضع العديد من المصطلحات العلمية واللغوية لكثير من مسميات الحضارة. وللدكتور " مجدي وهبة " عدة معاجم منها : معجم المصطلحات الأدبية (عربي) - معجم مصطلحات الأدب (إنجليزي) - معجم المصطلحات اللغوية والأدبية والعربية (مع كامل المهندس) - معجم ألفاظ الحضارة (عربي - إنجليزي) - معجم المصطلحات الفنية والعلمية والثقافية - ولمجلة (اللسان العربي) فضل كبير في هذا المجال .

وفي مقام وضع المصطلحات العلمية في علوم اللغة العربية أقف أمام ما صنعه أسلافنا العلماء في مجال علم النحو وعلوم البلاغة فحسب لعدة أسباب :
منها أن هذين العلمين كانا من أكثر العلوم حاجة إلى مصطلحات وقوانين متأثرة بالثقافات الأجنبية.

ومنها أن كثيرا من العلماء في هذه العلوم كانت لهم معرفة بالثقافات الأجنبية .

ومنها أن التأليف فيها كان بحاجة إلى وقوف علمائنا على ما صنعه العلماء في الأمم الأخرى في هذه المجالات .

فبين اللغات الإنسانية وشائج قرى وصلات نسب .

وعلى المهتم بلغة الضاد أن يسلم نفسه بثقافات أجنبية تفيده في نظرتة إلى لغته القومية وتفهم أسرارها .

أيها السادة:

يؤكد علماء العربية أن نشأة النحو عربية خالصة كالصيرافي في كتابه " طبقات النحويين البصريين " وابن الأنباري في كتابه " نزهة الألباء " والسيوطي في " بغية الوعاة " وفي " المزهر " وغيرهم. وابن الأنباري يجعل الأمام علي هو السابق إلى وضع النحو وتلاه أبو الأسود، وفي رواية ان عمر بن الخطاب أمر ابا الأسود بوضع النحو، وفي رواية أخرى أن زيادا كلفه بذلك، وعند كثيرين أن ابا الأسود هو أول من وضع النحو بالبصر، وقال آخرون أن أول من وضعه هو عبد الرحمن بن هرمز، وزعم آخرون أنه نصر بن عاصم.

وهناك أعلام كثيرون يذكرون في هذا المقام : ابن أبي اسحاق الحضري (117 هـ)، وعيسى بن عجم (150 هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (154 هـ)، ويونس (182 هـ)، ومعاذ الهراء (187 هـ) .

ومهما كان من رأى فإننا نجد الرائدتين الكبيرتين .

الخليل بن أحمد (100 - 175 هـ = 719 - 796 م)

وسيبويه بشر بن سعيد (140 - 180 هـ = 757 - 796 م).

وأولهما عماني بصري والآخر فارسي، ولد في البيضاء ونشأ في شيراز وهاجر إلى البصرة وأقام فيها يتلقى العربية في حلقاتها العلمية، واتصل بالخليل وحضر مجالسه اللغوية في مسجد البصرة الجامع، وعنه أخذ اللغة وعلومها ثم عاد إلى شيراز ومات ودفن فيها وقد احتفلت إيران بذكراه عام 1974.

ويثبت إحدى الباحثين تأثيراً هندية في وضع النحو، لأن الهنود عنوا بدراسة الأصوات ومخارجها وهو رأي لا يستند إلى حجة. وقد نفى التأثير الهندي في علم الأصوات العربية [البحث اللغوي عند الهنود لـ د/أحمد مختار]... وتشابه مخارج الحروف في العربية والسانسكريتية أمر يوجد بين اللغات، وليس دليلاً على الأخذ.

ويرى بعض المستشرقين أن النحاة العرب أخذوا بالإقتباس أو النقل من النحو السريالي... ويتابعهم في ذلك د/تمام حسان، فيقول: أن أبا الأسود كان يعرف السريانية، وأن كثيراً غيره كانوا على علم بها، وكان عرب الشام والعراق يعرفون أن للسريانية نحواً، ويقول: أغلب الظن عندي أن واضع النحو قد أخذوا التقسيمات السريانية وقلدوها، فجعلوا الكلام إسماءً وفعلاتٍ وحرفاً كما جعله السريان من قبلهم، حيث أخذوه من النحو اليوناني، فاستعاروا منه ما يساعدهم في تدوين النحو العربي (مجلة الأزهر - عدد مجرم 1380 هـ)، ويسترسل د/تمام في ذلك فيرى أن النحو العربي في بدايته نشأ مهتدياً بتجربة السريان النحوية التي هي امتداد للنحو اليوناني، وحين قسم أرسطو الكلام إلى إسم وكلمة ورباط، وعنى بالكلمة الفعل وبالرباط الحرف، وبحث في التذكير والتأنيث والبسيط والمركب، وكان ذلك كله مما يحثه السريان، وكان موضوعاً أمام الباحثين النحويين العرب. ⁽¹⁾ هذا بينما يجعل بعض

المستشرقين الآخرين نشأة النحو العربية، وان تقسيم الكلام إلى إسم وفعل وحرف تقسيم عربي خالص، ومنهم ليتمان وغيره، والعقاد في كتابه "عبقريّة الإمام" يجعل نشأة النحو مدينة للإمام علي، وكذلك يذهب الرافعي في كتابه "تاريخ أَداب الحرب"، مؤيدا أن هذه النشأة عربية خالصة. وذهب إلى أن النحو هو عمل الدليل [2 / 86، في الإسلام]، ويرى باحث هو د/ بدر اوي زهوان [ص 26 مقدمة في علوم اللغة] أن النحو محصلة للجهد للسابقين⁽²⁾ في القرنين الأول والثاني ... وهذا هو الرأي الذي أذهب إليه .

ولقد أفاد سيبويه مما جمعه من شواهد من شعر مختلف القبائل العربية، وعمد إلى استنباط مصطلحات وقواعد نحوه وصرفه من أصول اللغة، وشواهدا ومن ذكائه اللغوي العميق، وطالب بالقياس عليها، واعتبر كل ما خرج عليها شاذاً أو لغة لا يقاس عليها، ويجب اسقاطها من العربية كتابة وحديثاً، فلا تنتهج منها إلا ما هو خاضع للقياس. ولم يعجب الكسائي ذلك، بل اعتبر الشواذ صحيحة، لصحة الأساليب القياسية التي ارتضاها النحاة .

أيها السادة:

لقد كانت البصرة آنذاك صرحاً علمياً كبيراً، تتلاقى فيه مختلف الثقافات والتيارات والأفكار. ومن أبي الأسود إلى علماء النحو في البصرة، إلى الخليل وسيبويه، شمل البحث النحوي موضوعات متصلة بأجزاء الكلام وارتباط أجزاء الجملة بعضها ببعض، وطريقة هذا الارتباط، وأقسام الكلمة، مما هو من أهم مباحث النحو - وعنوا كذلك باشتقاق الكلمات، وتصريفها، وبنيتها، مما نشأ عنه علم الصرف .

وعن الخليل والثقافات المحيطة بمناخ البصرة، جمع سيبويه مواد كتابه الخالد "الكتاب" الذي كشف فيه عن أسرار العربية، والقواعد التي تحكم أغلب لهجاتها وصور أدائها ومناحي أسلوبها .

ويمكن اعتبار "الكتاب سيبويه" أول معجم عن المصطلحات العلمية، في علوم اللغة العربية .

والمصطلحات العلمية في النحو العربي التي وضعها سيبويه في كتابه، يبدو أنه قد رجع فيها إلى ثقافته اللغوية المختلفة .

ومن الجدير بالذكر أننا ونحن في عام 1996 نكون قد تجاهلنا أن سيبويه في هذه السنة يكون قد مضى على وفاته اثنا عشر قرناً من الزمان، ولعل لقاءنا هذا يعد خبر احتفال بهذه الذكرى الخالدة ذكرى مرور اثني عشر قرناً من الزمان على وفاة شيخ النحو العربي الكبير، ورائد الكتابة والتأليف فيه والاستنباط لأصوله ومقاييسه وقواعده من لهجات العربية وأساليبها .

أيها السادة:

إن في البحث المطوى الذي سعدت بتقديمه إلى هذا الملتقى تفصيلاً لسر وضع المصطلح العلمي في علم النحو العربي مما لا داعي لتكرار الحديث فيه ونقف هنا أمام المصطلح العلمي الذي وضعه أسلافنا في علوم البلاغة العربية التي يجمعها كلها علم البديع الذي كان أول من ألف فيه ابن المعتز العباسي المتوفى عام 296 هـ = 909 م، بكتابه (البديع) الذي كتبه عام 274 هـ أي قبل وفاته باثنين وعشرين عاماً هجرياً، وكان عمره آنذاك خمسا وعشرين سنة .

وابن المعتز تلميذ الإمام النحوي الكوفي أبو العباس ثعلب المتوفى عام 291 هـ = 904 م، وزعيم مدرسة الكوفة النحوية في القرن الثالث الهجري، وكانت الكوفة في ذلك الحين مركزاً كبيراً من مراكز الدراسات النحوية، وتنافس البصرة في جهودها اللغوية وتحالفها في عديد من الأصول والقواعد النحوية .

وكانت الثقافات الأجنبية، والترجمات لآراء أرسطو في الشعر والخطابة قد ذاعت في الوسط العلمي في القرن الثالث، وبخاصة في البصرة مدينة الخليل والجاحظ وأئمة الفكر العربي، ومدينة قدامة بن جعفر مؤلف كتاب (نقد الشعر) الذي تأثر فيه بأرسطو في كتابه " الشعر " تأثراً ظاهراً .

إن ألفاظ الإستعارة والمجاز والكناية وما إلى ذلك كله مما جاء في بديع ابن المعتز، ومن قبله في كتاب " صناعة الشعر " للكندي أول الفلاسفة العرب

الذي توفي عام 253 هـ ، وفي كتاب " قواعد الشعر " لثعلب، ومن بعده في كتاب " نقد الشعر " لقدامة، هذه الألفاظ هي معروفة عن أرسطو في كتابه (الشعر).

وقواعد الإستعارة عند أرسطو هي قواعد الإستعارة عند قدامة، ومن جاء بعده، نجدها عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه " أسرار البلاغة"، وضوح الإستعارة - والإستعارة من الضد، والإستعارة القبيحة، وغير ذلك هي آراء أرسطو نقلها قدامة وطبق عليها، وتأثر بها البلاغيون من بعده، وفي البلاغة عند عبد القاهر ومن جاء بعده نظرية غريبة في الإستعارة يقولون : أنها مبنية على التشبيه فأصل " رأيت أسدا " رأيت رجلا شجاعا كالأسد، وأنا أخالفهم جميعا في ذلك فنحن نقول : خالد شجاع وتقول صال خالد في الميدان كالأسد، ونقول صال أسد في الميدان يهزم الأعداء .

فالأسلوب الأخير أسلوب تخييلي لا صلة له بأسلوب التشبيه على الإطلاق، ومع ذلك يقول البلاغيون أن الإستعارة مبنية على التشبيه وأقول لهم : إنها مبنية على التخييل، والتخييل مجاز، وليست مبنية على التشبيه لأن التشبيه حقيقة .

وبعد فإن البلاغة العربية تتجمع كلها في علم من علومها وهو علم البديع الذي يبحث في المجاز والإستعارة والطباق والمقابلة والتورية والمبالغة، ويبحث في الإلتفات والتكرير والتقسيم وما إلى ذلك كله كالإيجاز الذي جعله القراء من خصائص اللغة العربية وحدها .

إننا لا نستطيع أن ننكر التأثر في وضع المصطلح البلاغي العربي بالمصطلح الأرسطي الذي سبق إليه الفيلسوف الإغريقي القديم " أرسطو".

وبعد فهذه خلاصات لما أحب أن أقوله بينكم، وهو كلمات قصار عن المصطلح العلمي في علمي النحو العربي والبلاغة العربية، الذي هما أهم علوم اللغة العربية، في القديم والحديث .

الهوامش والمصادر والمراجع

- 1- اللسانيات واللغة العربية - عبد القادر الفاسي - الدار البيضاء، 1980 .
- 2 - اللغة العربية والعالم الحديث - شارل ميلا - [مجلة اللسان العربي] .
- 3 - من إبراز اللغة - إبراهيم أنيس - الإنجلد المصرية، 1972 .
- 4 - طبقات النحوية البصرية للسيرافي، تحقيق .
- 5 - مقدمة في علوم العربية - برراوي زهران .
- 6 - فقه اللغة وخصائص العربية - محمد المبارك - دار الفكر الحديث - بيروت 1964 .
- 7 - مجلة اللسان العربي .
- 8 - مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة، ومجلة المجمع العلمي بدمشق، ومجلة المجمع العلمي العربي .